

السعادة عند شوينهاور: غياب الرغبات والمعاناة



كاستانيولي جورجيا
ترجمة: حمادي أنوار

مؤمنين بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

السعادة عند شوبنهاور: غياب الرغبات والمعاناة⁽¹⁾

كاستانيولي جورجيا
ترجمة: حمادي أنوار

⁽¹⁾- Castagnoli, Giorgia: «Le bonheur selon Schopenhauer, L'absence de désirs et de souffrance», Le monde des religions, Mai- Juin, N° 41 (2010). p-p: 28- 29

إن الإنسان الخاضع لاستبداد الإرادة لا يمكنه، حسب شوبنهاور، الاكتفاء بإشباع مؤقت؛ اللهم إلا بنسيان الذات في التأمل الجمالي أو باتباع طريق الزهد؛ لبلوغ السلام الداخلي، والذي ليس في متناول الجميع.

كيف السبيل إلى العثور على السعادة في عالم التمثلات الوهمية؟ يُعتبر النظام الفلسفي الذي أبدعه شوبنهاور (1788-1860) الإرادة على أنها ماهية العالم، تُفرد ذاتها وتقدمها في صيغة تعدد في الأشكال يسمى «تمثلات». الإرادة عبارة عن قوة عمياء، ليست خاضعة للزمان ولا المكان، ولا تتصاع لمبدأ السببية ولا لمبدأ الغائية. تحضّر هذه القوة في عمق كل مخلوق وفي كل شيء موجود؛ وذلك على نحو واع أو في قلب النفس البشرية. إن هذه القوة هي ما يدفعنا دوماً إلى مزيد من الرغبة، وهي التي تسفر عن الألم بفعل النقص، وتؤدي باستمرار إلى ميلاد رغبات جديدة.

هكذا، فإن التشاؤمية الشوبنهاورية قد نجمت عن استحالة وضع حدٍ للإرادة وعدم الاكتفاء بإشباع مؤقت. إن السعادة إذن في ماهيتها «سلبية»؛ لأنها تتعلق بغياب المعاناة والنقص. عندما يخنق الألم لا نشعر بأي شيء، فقط عند لقائنا بالألم الموالى، نفهم حينها بأننا كُنّا سعداء. لكن كيف يمكن الانفلات من سلسلة المعاناة هذه؟ لتكسير سلسلة الرغبات التي تسبب المعاناة البشرية، ولو للحظة وجيزة، يشير شوبنهاور إلى إمكانية وجود «ملجأ» أو «ملاذ» أو «مأوى» هو التأمل الجمالي.

مواضيع جميلة ورؤى جلية

تطمس لحظة الجمال هذه البُعدَ الفردي، وتتيح تجاوز العذابات المألوفة للإرادة؛ وذلك بنسيان الذات في الموضوع، وبحرره من فرديته يتجرد الإنسان من كل ألم وابتلاء، فتأمل الأفكار يمنحه لحظة لذة. إذا كان بإمكان كل موضوع، حسب شوبنهاور، أن يؤدي تجربة إستيطيقية؛ فإن المواضيع الأنسب لإثارة هذا الحدس لدى الفرد هي المواضيع الجميلة، وفي مستوى أعلى الرؤى الجلية.

لم يعد إدراكنا يُميّز، أمام موضوع جميل، لا العلاقات الظاهرانية؛ أي خصائص الموضوع المختلفة وميزاته في علاقتها بطريقتنا في إدراكها، ولا روابط المنفعة. لقد صرنا «غرباء عن إرادتنا الخاصة»؛ أي «ذوات عارفة خالصة» تسارع إلى السعادة القصوى. يفسح الإبداع الفني المجال أكثر أمام التجربة الاستيطيقية؛ فالمبدع عبارة عن «راء» يرى أشكالاً لا زمانية. بالنسبة إلى شوبنهاور، وبخلاف كانط؛ فإن العبقرى لا يحوز ملكة إنتاج أشكال مُبتكرة؛ لكنه قادر على إعادة إنتاج الأشكال الأصلية كما لو أن ذلك يتم بالتذكر. إن قوة الفن إذًا، لا تكمن في تغيير الحاضر أو تجديده؛ وإنما في الانفلات من الحاضر الأبدى الذي يسيب الإرادة لأجل العودة إلى ماضٍ قبل تاريخي وهادئٍ وتحت زمني. يتيح الفن هذه العودة إلى الأصل الذي يمتد بنا في زمان سابق على بداية تاريخ العالم.

ليس التأمل الاستطقي، مع ذلك، إلا وسيلة عابرة لأجل بلوغ شكل ما من السعادة. أما المرحلة الموالية، والتي تدوم أكثر، فهي تمزيق «حجاب المايا»؛ أي «حجاب الوهم الذي يغطي أعين البشر»؛ وذلك باختيار طريق الزهد. يبدي الحكيم، بالفعل، إعراضاً كلياً عن الحاجات الجسدية، وعن استبداد الرغبات؛ فهو يُرجئ إرادة الحياة ويتذوق طعم الهدوء الداخلي للمعرفة الخالصة. إنه من فرط الحرمان حظي بالسلام الداخلي؛ لذلك فهو إذن سعيد.

الناس المختلفون في الطبع

يعيش - الحكيم- في اندماج مع العالم؛ وذلك بفضل شعور الشفقة الذي يربطه بجميع الموجودات باسم وحدة أصلية هي: «أنت هذا» (*Tat twam asi*) كما تعبر عن ذلك العبارة القديمة للفيديا Védas مُلغية الاختلافات بين جميع مظاهر الوجود ذاته. إن معرفة ماهية العالم أساسية إذًا، لأجل التقدم في سبيل الحكمة والسعادة. والفلسفة، باعتبارها معرفة بالعالم، هي الطريق الأفضل لتحقيق ذلك.

غير أنه، بالنسبة إلى العقول الأقل تأثرًا بالفلسفة والزهد، فإن شوبنهاور يقدم بضع نصائح لتوجيه الذات بشكل أفضل في الحياة العملية واليومية. تشكل هذه الدراسة البسيطة حول الحياة السعيدة، والمعنونة بـ «حِكْمٌ في العيش الحكيم»، جزء من كتابه «*Parerga et Paralipomena*» المنشور سنة 1852. لقد حث فيه الإنسان على الانفتاح وصقل ملكاته الأسمى؛ خصوصًا الحرص، وهو ذلك الحذر الحكيم الذي يُعدنا لمواجهة الحياة، وكذا الشجاعة التي هي الدليل الحقيقي على نُبل النفس.

ينبغي البحث عن السعادة في ما نحن عليه بدلاً من البحث عنها في ما نملك، وفي البحث عن انسجام ميزاتنا الخاصة، سيكون بوسع وجودنا الخاص أن يتفتح وينمو بشكل أفضل. رغم أن جميع الناس يميلون، على نحو مثالي، إلى السعادة؛ إلا أن تبايناً جذرياً في الطبع وكذا المواقف المختلفة، يؤثران في هذا المسار. يُعتبر شوبنهاور أن كل طبع يكون فردياً وأمبريقياً وثابتاً وفطرياً: لا يجب أن نخالفه أو نعيد تشكيله؛ وإنما يجب اتباع الطريق الذي رسمته الطبيعة؛ لكي يتم بالتالي تجنّب كل ألم لا طائل منه.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مُهْمِنُون بِلا حُدُود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com